من يقدر أن يؤذيك ؟

للقديس يوحنا ذهبى الفم

كنيسة الشهيد مارجرجس باسبورتنج

من يقدر أن يؤذيك ؟

لا يستطيع أحد أن يؤذى إنساناً ما لم
يؤذ هذا الإنسان ذاته [1]

طبعة ثالثة

يوحنا ذهبى الفم

(١) هذه هى الترجمة الحرفية لعنوان المقال .

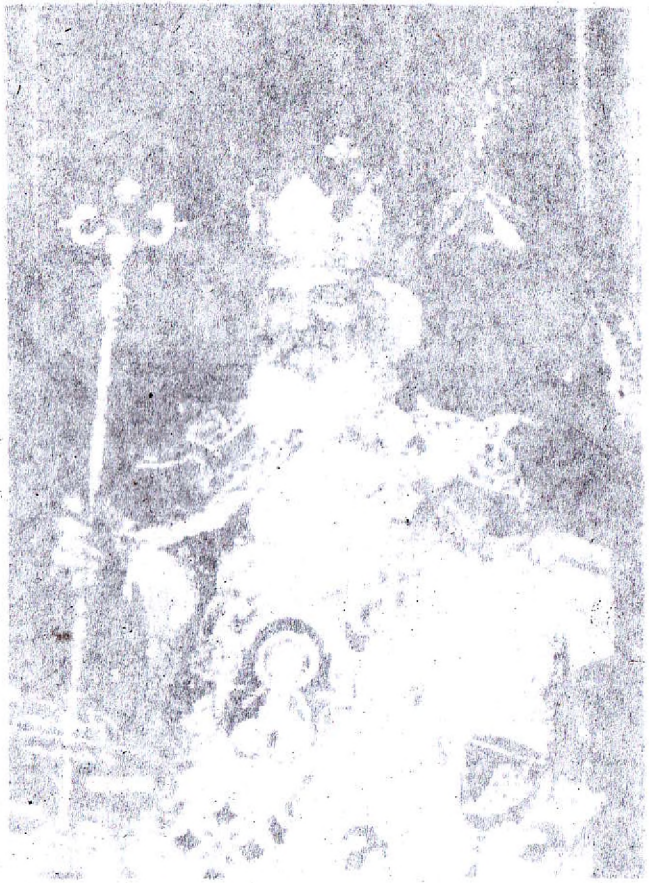

من يقدر أن يؤذيك ؟

البشرية فى كل عصورها تشكو رتدن من كوارث طبيعية ومشاكل اجتماعية من الخارج ومن آلام نفسية ومتاعب روحية من الداخل . فمن قحط وطوفانات وزلازل وبراكين ، ومن أمراض جسدية متنوعة ومن أخطار لصوص وتعديات وافتراءات ومشاكل مع اغراءات مستمرة ، ومن اضطرابات نفسية وقلق وخداع داخلى ... إلخ فلا تسلم نفس واحدة من الضيقات الخارجية والداخلية ، منفردة أو مجتمعة .

هذا ما تلاحظه يا عزيزى عندما يستبد بك الألم ويساورك القلق فى وسط دوامة هذه الحياة . وكثيراً ما يشكو إليك أصدقاؤك مما تشكو منه نفسك ، وحينئذ يخفف عنك ألم نفسك شعورك بشركة الجميع فيه وفيما هو أشد منه . ولكنك تحاول أن تعكس أتعابك الداخلية على أقرب حادث أو باعث خارجى كما يفعل الأكثرون ممن يحيطون بك . فقد تبرر تعب نفسك بظلم الآخرين لك أو تعديهم عليك أو حرمانك من العطف الأبوى أو الأموى نتيجة تقصير ممن تنتظر منهم حنواً ، أو تقصير اخوانك فى تقديرك ، أو عدم عدالة رؤسائك فى العمل والذين بيدهم

حقوقك .... الخ . وأنت فى هذا قلما تقدر أن تدخل إلى نفسك لتتلمس التعليل الحقيقى لحالك هذا . فما أسهل على النفس أن تخدع نفسها أكثر من أن تخدع من الآخرين . وما أصعب عليها أن تهتدى إلى حقيقة مصدر ضعفاتها الداخلية بسبب محاولتها الطبيعية إلى كل ضعف وضيق وتذمر إلى أمور خارجية أو مجرد مؤثرات اجتماعية .

ولكن الحقيقة هى التى كشفها لنا الرب يسوع خالق النفس والعالم بدخيلتها وطبيعتها فى جميع الظروف والأحوال . فقد علمنا أن داء النفس فى ذاتها وليس خارجاً عنها .

فالنفس البشرية تشبه إناءاً خزفياً واحداً لا يختلف إلا فى طبيعة ما بداخله ، فإن كان ما بداخله الواحد بنزيناً وبداخل الآخر ماء ، سيصطحب اقتراب جمرة نار التهاب الأول وانفجاره ، أما الثانى فيطفئ الجمرة .

هكذا تنزل الكارثة الواحدة باثنين ، تزداد نفس أحدهما ازاءها شجاعة وخبرة ، بينما تتحطم نفس الثانى يأساً .

وهكذا القلب الممتلئ بالمسيح سلاماً وفرحاً لا تقوى عليه الكوارث ومحاربات الشر بجميع مغرياتها أو تهديداتها على نزع

سلامه منه بل تزيده سلاماً بانتصاره فى جهاده ومقارمته لها بإيمانه فتتحول التجربة إلى مصدر بركة وخبرة روحية فى جهاده الحيوى .

أما القلب المنصرف عن يسوع ، فإنه خلو من السلام والبركات النابعة من هذا الفيض الإلهى . لهذا فإنه يسقط فى ضيق نفسى وتحت أعباء الخطية ، لا بسبب مؤثر خارجى ، إنما بالحقيقة لأجل التعب الداخلى .

إذاً ، فليكن لك سلام مع الله وشركة عميقة مع الثالوث الأقدس ، عندئذ لا تخف ، لأنه لا يقدر شىء ما أو أنسان مهما بلغ إجرامه أو تدابيره وحيله أن يؤذيك . وهكذا إن لم تؤذ نفسك بنفسك لا يقدر أحد أن يؤذيك . أما إن أضررت بنفسك بانصرافك عن الله ، وإهمالك دعوته ، واستهتارك بإمكانيته القوية القادرة أن تعمل فيك ، عندئذ خف واضطرب ... ولو لم يوجد مثير خارجى .

يقول نيافة أبينا أنبا شنودة أسقف التعليم الكنسى [1]

---

(١) جريدة وطنى ٦٥/١١/٧ عدد ٣٦٠ .

صدق القديس يوحنا ذهبى الفم عندما كتب مقالاً طويلاً عنوانه « لا يستطيع أحد أن يؤذى إنساناً ما لم يؤذ هذا الإنسان ذاته » .

والإنسان الذى يرتفع فوق مرتبة الأذى ، **هو الذى حدد له هدفاً واضحاً فى الحياة** ، هدفاً واحداً هو « الالتصاق بالله » ، وليس غير هذا الهدف ، لا يستطيع أحد أن يبعده عنه ، لأن العلاقة بالله عمل داخلى فى القلب . وهكذا يقول بولس الرسول متعجباً « من سيفصلنا عن محبة المسيح : أشدة ، أم ضيق ، أم اضطهاد ، أم جوع ، أم عرى ، أم خطر ، أم سيف ، لكننا فى هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذى أحبنا » .

من ذا الذى يؤذيك إذن ؟ تؤذيك خطيتك ، لأنها تفصلك عن الله ، وتؤدى بك إلى الهلاك الأبدى . إذن أنت إذا أخطأت تؤذى نفسك . أما إن كان قلبك نقياً ، فلا يمكن لأحد أن يؤذيك .

قد يسلبك البعض مالك ، ولكنه لا يستطيع أن يسلب منك ملكوت الله . وسلب المال ليس أذى ، لأنه لا يفصلك عن الله . فآدم وهو فى الفردوس بعد السقوط قبيل أن يسلب منه شيئاً ، كان الرعب يملأ قلبه ، حتى عندما سمع صوت الله ماشياً منادياً إياه ، إذ أجابه « سمعت صوتك فخشيت » ، بينما بولس فى وسط

السجن ، تحت حراسة مشددة ، ونفسه تحمل أعباء مسئولية كنائس هذا قدرها ، مع سماعه عن انقسامات وانشقاقات وثورات يقوم بها الرعاة ضده ، ومع ذلك يملأ الفرح قلبه ، بل ويناشد المؤمنين جميعاً أن يفرحوا قائلاً « إفرحوا فى الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا » فى ٤ : ٤ .

وفى حياتنا اليومية نجد كثيرين لا يملكون إلا كفاف يومهم لكن بسلامهم الداخلى يؤمنون بالذى يعولهم ، بينما كثيرون يملأ الغنى مخازنهم ولكن لا يعرفون أن يناموا الليل .

قد يؤذى أحد جسدك ، بالضرب أو الجلد أو التعذيب أو القتل ، كما حدث للشهداء أو المعترفين . ولكنه فى كل ذلك لا يمكنه أن يؤذى روحك بل على العكس يعد لك بذلك أكاليل مجد فى السماء . وقد يطردك أحد من مكان أو من عمل ، ولكنه لا يقدر أن يطردك من حضرة الله . بل هو بطرده إياك يعظم أجرك فى السماء ، لأنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم ، فطوباك ... [1] أما الذى أراد أن يؤذيك فيصيبه نفس الضرر

---

(١) عن المقال السابق ذكره .

الذى دبره ، حفره فسقط فى الهوة التى صنع . ويرجع تعبه على رأسه وعلى هامته يهبط ظلمه ، مز ٧ : ١٥ ، ١٦ .

فهامان صلب على عود الصليب الذى صنعه لمردخاى ، وقايين القاتل ، صار تائهاً فى الأرض بينما هابيل المقتول انتقل من أرض الألم والشقاء . ويوحنا المعمدان فى وسط السجن يقدم رأسه للسياف بشجاعة مردداً كلمة الحق مقدماً حياته بسلام ، أما هيرودس الملك صاحب السلطان فيضطرب ويرتعب ويهاب يوحنا المعمدان المجرد حتى بعد قتله ... إذ فقد سلامه الداخلى.

ويوسف ارتقى إلى المنصب العالى أما اخوته الحاسدون والحاقدون له فخروا عند قدميه .

حقاً كم من ظالمين كثيرين لا ينامون الليل رعباً ، يكرهون الحياة ويضطربون داخلياً رغم ما لهم من صورة العنف والقوة ، بينما كثيرون فى وسط المكائد المدبرة لهم ظلماً ينامون مطمئنو النفس لا يهابون أحداً ولا يخافون الزمن ، كبطرس النائم فى وسط السجن !!!

وقد يتكلم عنك بعض الناس كلمة رديئة . افحصها جيداً فى قلبك ، إن كانت كلمة كذب وباطل ، فهو لا يؤذيك بها،

بل ينطبق عليك قول الرب ، طوبى لكم إذا عيروكم ... وقالوا عليكم كل كلمة شريرة مِن أجلى كاذبين ، افرحوا وتهللوا ، لأن أجركم عظيم فى السموات ... ، . أما إذا كانت هذه الكلمة الرديئة صدقاً وحقاً ، فإنك إن دافعت عن نفسك ، لا تدفع الأذى عنك ، وإنما تؤذى نفسك بالأكثر إذ ترتكب بدفاعك خطايا أخرى تزيد انفصالك عن الله ... اعتبر ما سمعته عنك بمثابة اعتراف منك ، أو كأنه جزاء (تأديب) عن خطيئتك ، أو خذه كتنبيه لك أو نصح أو انذار وهكذا تستفيد منه وتنتفع .

يا أخى ، تسعد قلبك جداً ان عرفت تماماً ما هو الأذى فى حقيقته ، الأذى الحقيقى هو خسارتك لأبديتك . ان لا تهتم بتصرفات الناس من حولك . إن أتعابهم لك من الخارج لا يؤذيك مطلقاً ، إن كان ذلك منهم بنوع الظلم . فهكذا حدث للأنبياء والرسل والقديسين جميعاً وللسيد المسيح نفسه . أما إن كانت مضايقاتهم لك بسبب خطيئة ارتكبتها أنت ، فلا تشبه نفسك حينئذ بالقديسين الذين تألموا من أجل المسيح بسبب برهم، بل تكون بخطيئتك قد جلبت الأذى إلى نفسك ، وأيضاً أعثرت الآخرين ... ، [١] .

---

(١) عن المقال السابق ذكره .

أخيراً هل تستطيع قوة خارجية أن تجبرك على الخطية فتؤذيك ؟ لا بالتأكيد ، فإنه رغم ما لدى العالم من مغريات جذابة والشيطان من حيل وخدع ... لكن لا تستطيع قوة خارجية أن تنحرف بإنسان بغير إرادته ، إلا إذا ترك قلبه أن ينحرف داخلياً أولاً ... فيوسف إذ كان فى سلام مع الله لم تستطيع الشهوة أن تسيطر عليه مع أنه كان شاباً ، غريباً ، محروماً من العطف الأبوى والأموى والأخوى ليس لديه كتاب مقدس ، ولا كاهن أو معلم ، والخطية معروضة أمامه فى أقوى صور الاغراء ، فى مكان مغلق ، لا يعلم أحد بشىء عنه ، تغريه سيدته بل وتهدده ممسكة بثيابه ومع ذلك لم تضطرب نفسه ولا سقط فى الشهوة بل فى سلام كامل أجابها ، .. كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله ، . وعلى العكس داود النبى ، الذى أقامه الله من المزبلة إلى الملك ، المتزوج بأكثر من امرأة ، صاحب المزامير الجميلة المعزية .. فى اللحظة التى نسى فيها الله وخرج يتنعم على السطح سقط فى الخطية .

لذلك احذر يا أخى لئلا تقتل نفسك بنفسك ، وترد السبب على الآخرين أو على الظروف المحيطة بك .

هذا هو محور المقال الذى كتبه يوحنا ذهبى الفم فى منفاه ، غالباً قبل موته بفترة قصيرة . وقد قمت بترجمتها عن مجموعة :

The Writings of the Niciene & Post- Niciene Fathers .

مع تبويبه ووضع عناوين جانبية وقد ساهم الأخ نبيل يوسف بنصيب كبير من الترجمة .

الرب قادر أن يستخدمه لأجل مجد اسمه القدوس وبركة لكثيرين .

القمص تادرس يعقوب

نياحة ذهبى الفم

١٧ هاتور ١٦٨٢

٢٦ نوفمبر ١٩٧٠

هدف المقال

إننى أعرف جيداً أن جامدى الفكر ، المتلهفين فى جريهم وراء الأمور الزمنية ، المربوطين بمحبة العالم ، المأسورين تحت عبودية اللذات الجسدية ، الذين ليس لديهم إدراك قوى للمفاهيم الروحية ، هؤلاء إذ يرون ان ما أنطق به منذ بدايته غير معقول، لذلك يكون لهم هذا المقال عريباً ومتناقضاً ، ويفرطون فى الاستهزاء به .

لكن هذا لن يعوقنى عن تحقيق ما وعدت به ، بل بالعكس يدفعنى إلى الاجتهاد فى البرهنة عليه .

واننى أرجو من أولئك الذين لهم وجهة نظرهم هذه فى الموضوع الذى أتكلم فيه أن ينتظروا حتى نهاية حديثى . وأنا متأكد أنهم سيأخذون برأيى ويدينون أنفسهم ، مكتشفين أنهم كانوا مخدوعين حتى هذه اللحظة ، وعندئذ ينقضون اعتقادهم الخاطئ الذى تمسكوا به فى هذا الشأن ، معتذرين طالبين الصفح، بل وشاكرين إياى كثيراً ، كما يفعل المرضى بالأطباء عندما يشفوا من أتعاب أجسادهم .

لهذا لا تخبرنى ما هو رأيك الآن ، بل انتظر حتى تسمع منى براهينى ، وعندئذ تحكم حكماً صائباً ، دون أن يعوقك جهلك عن ذلك . لأنهُ فىَّ القضاء ، حتى فى الأمور الزمنية ، إذا رأوا الخطيب الأول يقدم حججاً قوية وينقد كل بند تماماً ، إلا أنهم لا يكتفون بذلك معلنين حكمهم ما لم يستمعوا إلى الخطيب الثانى (المحامى) الخصم للخطيب الأول . فحتى وإن بدت ملاحظات الأول حقيقية إلى درجة كبيرة ، لكنهم يحجزون الحكم حتى يستمعوا للثانى .

بالحقيقة ان عظمة القضاة تكمن أولاً فى استماعهم بدقة لكلا الطرفين وبعدئذ ينطقون بالحكم .

هنا نستبدل الخطيب بالمفهوم العام الذى صار له مع مرور الزمن أساس عميق فى داخل أفكار الجماعة ، وصار له تأثير قوى فى العالم .

هذا المفهوم (الخاطئ) يقول ، كل الأشياء قد قلبت رأساً على عقب ، وأن الجنس البشرى مشحون باضطرابات كثيرة ، إذ كثيرون يخطئون كل يوم ، كثيرون يشتمون ، كثيرون يخضعون تحت العنف والشر . فالضعيف مذلول للقوى ، والفقير يخضعه الغنى .

وكما يستحيل إحصاء عدد أمواج البحر ، هكذا لن يمكن إحصاء ضحايا الساقطين تحت أعباء المكائد والإهانات والآلام ولا يمكن لا بتعديل القانون ، ولا بالإرهاب عن طريق القضاء ولا بشيء من هذا القبيل ، يقدر أن يوقف تيار هذا الوباء والاضطراب ، إنما في كل يوم يتزايد الشر أكثر فأكثر . حتى أصبحت تنهدات المتألمين وندبهم ونحيبهم أمر جماعي مألوف...

وهناك من يتمسكون بنوع جديد من الحمق ، اتهام عناية الرب عندما يرون الإنسان العفيف كثيراً ما يكون مأسورا تحت العنف مضروباً ومهاناً بشدة ، بينما الإنسان الوقح القاسي الوضيع يصب مضايقات لا تحصى على من هم أكثر منه عفة ، ويتجنى على من في المدينة أو في البلد أو في الصحراء والبحر والبر .

هذا المقال الذي أدلي به ضروري حتى يصحح ما يزعمونه ... مثبتاً ان أي إنسان أخطأ إنما يصيبه الضرر بيديه ، ولم يبعثه على الخطأ إنسان آخر .

❖ ❖ ❖

لكل مخلوق عدو يؤذيه

لكي أبرهن على ما قلت بوضوح أكثر علينا أولاً أن نتساءل ما هو الظلم ؟

من أي شيء تتكوّن مادته ؟

ما هو الصلاح البشري ؟

وما الذي يدمره ؟

وما الذي يبدو أنه يدمره لكن في الحقيقة لا يدمره ؟

❖ ❖ ❖

وإذ يلزمني أن أؤكد حجتي بأمثلة ، أقول بأن كل شيء له عدو شرير يؤذيه . فالحديد يفسده الصدأ ، والخشب يفسده السوس ، وقطيع الخراف تهلكه الذئاب ، وخواص الخمر تفسد بالاختمار حتى يصل إلى أن يصير طعمه حامضاً (لاذعاً) ، والعسل يفقد خواصه عندما يفقد حلاوته الطبيعية ويتحول إلى عصارة مرة ، وسنابل القمح يهلكها اليرقان (التعفن) والجدب ، وأشجار أخرى تؤذيها الديدان ، ومخلوقات غير عاقلة يهلكها

أنواع معيّنة من الأمراض .

ولكى لا نطيل الحديث ... نذكر أن جسدنا يتعرض للحميات والشلل ولكثير من الأمراض الأخرى .

إذن كل شيء له من يفسد خواصه أو صلاحيته . والآن لنفكر ما هو هذا الذى يحطم الجنس البشرى ، وما هو الذى يهلك صلاح الإنسان ؟

غالبية البشر تظن أن هناك أشياء كثيرة قادرة على اهلاكنا . فعلينا أن نوضح الآراء الخاطئة فى هذا الأمر .. مظهرين بوضوح أنه لا يوجد شيء يقدر أن يجلب علينا ضرراً أو هلاكاً ما لم نخن نحن أنفسنا بأنفسنا .

يتصور ذوو الأفكار الخاطئة ، أنه يوجد أشياء كثيرة تقدر أن تفسد صلاحنا . البعض ينظر إلى الفقر ، وآخرون إلى الأمراض البدنية ، وآخرون إلى فقدان الممتلكات ، أو حلول المصائب ، أو الموت .

أمثال هؤلاء دائمو البكاء والندب لحلول هذه الأمور . وبينما هم يرثون لحال المتألمين ويسكبون الدمع يقولون مضطربين ، يا لها من نكبة . قد حلت هكذا بالرجل فقد تبددت أمواله ، وآخر

يقول ، قد أصيب رجل بمرض خطير ويئس الأطباء من علاجه !! ، ، وآخرون يبكون من أجل المسجونين ، والبعض يندبون المنفيين ... وآخرون يبكون الغرقى والذين أصابهم الحريق والذين ماتوا تحت أنقاض منزل ؛ **ولكن لا يبكى أحد السالكين فى الاثم ، بل بالعكس يهنئونه هؤلاء الذين هم أردأ حالاً من الكل ، مشجعين إياهم على ارتكاب كل الشرور .**

والآن يلزمنى أن أؤكد ... أن لا شيء من هذه الأمور تقدر أن تؤذى الإنسان الذى يعيش بوقار ، ولا تستطيع أن تفقده صلاحه .

مثال ذلك : اخبرنى لو أن انساناً فقد كل ماله بواسطة محتالين أو لصوص . ماذا يمكن لهذه الخسارة أن تفعل بصلاحه ؟!

وإن كنت أريد أن أوضح هذا الأمر ، يلزمنى أولاً أن أشير إلى مفهوم صلاح الإنسان معالجاً الموضوع بأمثلة أخرى من المخلوقات حتى يمكن أن يكون الأمر جلياً وأكثر إدراكاً لغالبية القراء .

❖ ❖ ❖

مفهوم صلاح الإنسان
ليكن لك هدف واضح

ما هو صلاح الفرس ؟ هل يكمن فى ما له من لجام مذهب وسرج مناسبة وأربطة من خيوط حريرية لربط الجل ، وأقمشة ذات ألوان مختلفة وما عليه من ثوب ذهبى ، وعدة للرأس منصعة بالجواهر ، وغطاء فوق الشعر مضفر بحبل ذهبى ؟ أم يكمن فى خفة حركته وقوة أقدامه وخطواته ... شجاعته ، قدرته على القيام بالرحلات الطويلة واستخدامه فى الحرب ، وقدرته على التصرف بهدوء فى ميدان المعركة ، وإنقاذه لصاحبه ان حدثت هزيمة ؟!

أليس من الواضح أن الأمور الأخيرة لا الأولى هى التى يكمن فيها صلاح الفرس ؟!

وأيضاً ماذا تقولون عن صلاحية الحمير والجحش؟ أليست تكمن فى القدرة على حمل الأثقال بلا اضطراب ، والمثابرة على الرحلات الطويلة بسهولة ، وصلابة حوافره كالصخر ؟!

هل تستمد هذه الحيوانات صلاحيتها الحقيقية من الزينة الخارجية ؟!

وأى نوع من الكروم تعجب بها ؟! هل التى تحمل أوراقاً كثيرة أم المثقلة بالثمار ؟!

أى نوع من الصلاحية نعزى به الزيتونة ، هل ما لها من فروع ضخمة وأوراق كثيرة أم حملها بثمار وفيرة من كل جانب من جوانبها ؟!

جسناً ، إذن فلنسلك على نفس المنوال بالنسبة للمخلوق البشرى ، حتى نعرف مفهوم صلاح الإنسان ، وما هو الشىء الوحيد الذى يقدر أن يؤذيه .

مفهوم صلاح الإنسان

ما هو إذن صلاح الإنسان ؟ صلاح الإنسان لا يكمن فى الغنى حتى نخاف الفقر ، ولا فى الصحة البدنية فنرهب المرض ، ولا فى نظرة الناس إليك حتى تحذر ما يقوله الناس عنك بشر ، ولا فى الحياة هنا فى ذاتها حتى ترتعب من الموت ... إنما يكمن صلاحه فى التمسك بالتعاليم الحقيقية والاستقامة فى الحياة ، الأمر الذى لا يستطيع أحد ، حتى الشيطان نفسه ، أن يسلب الإنسان إياه طالما كان حريصاً عليها كما ينبغى .

وهذا الأمر يدركه تماماً حتى أخبث الشياطين وأشدهم . لهذا جرد الشيطان أيوب من مادياته لا ليجعله فقيراً إنما ليلزمه أن ينطق بكلمة تجديف على الله . وعذب جسده لا ليذله بالمرض بل ليحبط صلاح نفسه . لكنه عندما نفذ كل حيله ، وجعل هذا الغنى فقيراً ... وحرمه من أبنائه ... ومزق جسده بوحشية لا يقدر الجلادون أن يفعلوها لأن أدوات التعذيب لا تقدر أن تمزق كل جانب من جوانب الجسد كما يفعل الدود الذى كان فى جسده ، وأفسد الشيطان سمعته حتى أعلن أصدقاؤه الحاضرون معه أن هذا جزاء له عن خطاياه التى يستحقها موجهين ضده اتهامات كثيرة ، وطرده من مدينته وبيته لا إلى مدينة أخرى بل صارت المزبلة مدينته وبيته .

كل هذا لم يؤذِ أيوب بل بالعكس تمجد بالأكثر على حساب هذه المكائد التى صبها ضده .

لقد أخذ الشيطان منه كثيراً لكنه لم يسلبه شيئاً من صلاحه بل دفعه بالأكثر لتزداد قوة صلاحه . لأنه بعد ما حدثت له هذه الأمور تمتع بثقة أعظم بقدر ما حاربه خصم قوى .

والآن إن كان الذى كابد آلاماً مثل هذه ، التى ليست من عمل إنسان ، بل من عمل الشيطان الأكثر شراً من كل البشرية ،

هذا لم يصبه أى ضرر ، فهل تقول أنت بأن إنساناً ما قد أضرك أو حطمك ...

إن كان الشيطان ، المملوء مكراً عظيماً هذا مقداره ، بعدما صب كل ما فى حقبته ، واستخدم كل أسلحته ، وصب كل شروره ضد إنسان ذا مركز سام عائلياً ، وبار ، ومع هذا لم يسبب له أذى ، بل بالحرى كما قلت أنه أفاده ؛ فكيف تقدر أن تتهم إنساناً أو آخر أنه يحمل فى يديه ضرراً لغيره ، وليس لنفسه ؟!

الشيطان !!

قد يقول قائل : ألم يؤذِ الشيطان آدم ، إذ أفسد كيانه وأفقده الفردوس ؟

لا ، إنما السبب فى هذا يكمن فى إهمال من أصابه الضرر ، ونقص ضبطه للنفس ، وعدم جهاده . فالشيطان الذى استخدم المكائد القوية المختلفة لم يستطع أن يخضع أيوب له فكيف يقدر بوسيلة أقل أن يسيطر على آدم ، لو لم يغدر آدم بنفسه على نفسه ؟!

الظلم !!

ماذا إذن ؟! ألا يصيب الأذى من يتعرض للافتراءات ويقاسى من نهب الأموال، فيحرم من خيراته ويطرد من ميراثه ويناضل فى فقر فادح ؟!

لا ، بل ينتفع إن كان وقوراً . لأنه هل أضرت هذه الأمور الرسل ؟ ألم يجاهدوا دائماً مع الجوع والعطش والعرى ؟! وبسبب هذه الأمور صاروا ممجدين ومشهورين وربحوا لأنفسهم معونة أكثر من الرب ؟!

المرض !!

وأيضاً أى ضرر أصاب لعازر بسبب مرضه وقروحه وفقره وعدم وجود من يقيه ؟! ألم تكن هذه الأمور تصفر له إكليلاً من زهور النصر ؟!

مديح الناس وذمهم !!

وأى ضرر أصاب يوسف عندما اتهم بسمعة شريرة ، فى أرضه أو فى غربته فقد اتهم بالزنا والفسق ؟!

وماذا أصابه من صيرورته عبداً منفياً ؟!

أليس بسبب هذه الأمور صار يوسف موضع إكرام وتقدير؟!

الموت !!

ولماذا أتحدث عن النفى فى أرض غريبة ، أو الفقر أو تشويه السمعة أو الأسر ، فإنه أى ضرر أصاب هابيل بموته ، مع انه مات موتاً عنيفاً ، فى غير أوانه . وبيدى أخيه ؟!

أليس على حساب هذا صارت سمعة هابيل تجوب المسكونة كلها ؟!

أنظر إذن كيف أكد المثال أكثر مما وعدت ، لأنه لم يقف

عند حد أن الإنسان لا يضره غيره ، بل ينال نفعاً عظيماً على يدى مناضليه .

فلماذا يعاقب الله مدبرى المكائد ؟

قد يُقال : إذن ما هو هدف التأديبات والعقوبات ؟ ولماذا وجد الجحيم ؟ وما فائدة التهديدات الكثيرة ، مادام لا يضر أحد غيره ولا يصيبه ضرر من غيره ؟ ...

اننى لم أقل انه لا أحد يضر غيره ، بل لا أحد يصيبه ضرر من غيره . وكيف لا أحد يصيبه ضرر من غيره مادام كثيرون يضرون غيرهم ؟!

اخوة يوسف مثلاً أضروا يوسف ، لكن يوسف نفسه لم يصبه الضرر .

وقايين ألقى بشباكه لهابيل ، لكن هابيل لم يسقط فيها . وهذا هو السبب الذى لأجله وجدت التأديبات والعقوبات .

فالله لا يرفع العقوبة عن مدبر الضرر لمجرد صلاح محتمل الضرر ، بل يؤكد عقوبته بسبب شر صانع الاثم . فإنه بالرغم من أن الذين يسقط عليهم الشر ، يصيرون أكثر مجداً على حساب المكائد المدبرة ضدهم ، لكن هذا لم يكن فى نية

مدبرى الشر ، إنما بسبب شجاعة من هم ضحيتهم . لذلك فإن الأخيرين تعد لهم أكاليل الحكمة ، أما الأولون فتعد لهم جزاءات شرورهم .

هل سلبت أموالك ؟ اذكر تلك الكلمات ، عرياناً خرجت من بطن أمى وعرياناً أعود إلى هناك ، أى ١ : ٢١ . وأضف إليها كلمات الرسول ، لأننا لم ندخل العالم بشىء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشىء ، ١ تى ٦ : ٧ .

هل أسىء إلى سمعتك ، وحملك البعض بشتائم لا حصر لها؟ اذكر العبارة القائلة ، ويل لكم إذ قال فيكم جميع الناس حسناً ، لو ٦ : ٢٦ . وأيضاً إن ، قالوا عليكم كلمة شريرة ... افرحوا وتهللوا ، مت ٥ : ١١ .

هل أخذت إلى المنفى ؟ اذكر أنه ليس لك هنا موضع بل إن كنت حكيماً يلزمك أن تنظر إلى العالم كله كأرض غربة .

هل أصبت بمرض خطير ؟ اقتبس ما يقوله الرسول ، إن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوماً فيوماً ، ٢ كو ٤ : ١٦ .

هل يعانى إنسان من موت عنيف ؟ ليذكر يوحنا الذى

الأذى يصيب الظالم لا المظلوم !!

إن كان لا فقدان المال أو الافتراءات أو السب أو السبى أو الأمراض أو الاضطهادات بل ولا الموت الذى هو أفظع من هذا كله ، يقدر أن يضر من يتعذبون به ، بل بالحرى يزداد نفعهم ، فكيف تقدر أن تثبت لى أن الإنسان لا يصيبه أذى متى حل به شىء من هذا ؟!

اننى سأجتهد أن أثبت أكثر من هذا ، أن الذين يصيبهم الأذى ويتألمون من الشر ، هم أولئك الذين يصبون شرورهم على غيرهم . فانه لا يوجد إنسان أكثر بؤسًا من قايين الذى صنع هكذا بأخيه (قتله) ؟!

وما أكثر شقاء تلك الامرأة التى لفيليب ، حيث قطعت رأس يوحنا ؟ وما أعظم شقاء اخوة يوسف الذين باعوه للغرباء وأرسلوه إلى أرض غريبة ؟! وشقاء الشيطان الذى ضايق أيوب بهذه النكبات العظيمة ؟! لأنه لا يدفع حساباً عنيفاً عن شروره فحسب بل وبسبب ما فعله بأيوب أيضاً .

أترون كيف جاءت الأدلة أكثر مما نتوقع ، إذ ظهر أن الساقطين تحت الظلم لا تصيبهم جراحات ، إنما يرجع الأذى على رأس مدبرى المكائد !!!

قطعت رأسه فى السجن وأخذت فى طبق وقدمت مكافأة عن رقص زانية .

تأمل المكافأة التى تنالها على حساب هذه الأشياء ، فإن كل هذه الآلام عندما تسقط ظلمًا من إنسان على آخر تنزع خطايانا وشرنا (إذ نتقبل الظلم بلا تذمر مؤمنين بالله مترجين الحياة الأخرى ، فتعمل هذه الأمور على تزكيتنا) . إذن عظيم هو نفع هذه الأتعاب بالنسبة للذين يحتملونها بشجاعة !!

فإذ لا يقوم صلاح النفس على الغنى أو الحرية (الجسدية) أو عدم النفى وغير ذلك من الأمور التى أشرت إليها ، بل على أفعال النفس ، لذلك فإن أى ضرر يصيب هذه الأمور لن يلمس الصلاح البشرى بأدنى أذى .

ماذا إذن ؟ لنفرض أن انساناً يسىء إلى حياته الروحية ، ثم يسىء إنسان إليه بضرر ما ، فإن الأذى لا يأتيه من الغير ، إنما يكون نابعاً من داخل نفسه ، من الإنسان ذاته . ربما تتساءل : كيف ذلك ؟

عندما يضرب إنسان آخر ، أو يسلب ماله ، أو يقذفه بشتائم قاسية أو يسبه . فإن الإنسان الثانى يحتمل بالتأكيد ضرراً بل وضرر كثير ، لكن الأذى لا ينبع ممن أساء إليه بل من نفسه المتعبة . لأن ما سبق أن قلته أعود فأكرره انه لا يوجد إنسان مهما بلغ شره أن يهاجم آخر بشر أو عنف أشد من ذلك الشيطان الحاقد ، العدو غير المشفق علينا ، لكن حتى هذا الشيطان المتوحش لم يكن له سلطان أن يفسد ذلك الإنسان (أيوب) الذى عاش قبل الناموس وقبل عهد النعمة ، رغم استخدامه أسلحة كثيرة حادة من كل جانب . هذه هى قوة نبل النفس !

وماذا أقول عن بولس ، ألم يحتمل أحزاناً كثيرة لا يمكن

إحصائها : من إلقاء فى السجن وتثقيل بالقيود ، وضعه تحت حراسة مشددة ، جلد من اليهود ، رجم ، تمزق ظهره لا بالسياط فحسب بل وبالعصى أيضاً ،غرق فى البحر ، مهاجمة لصوص فى مرات كثيرة ، صراع مستمر مع بنى جنسه ، ومع الأعداء والمعاندين ، مكائد بلا عدد ، جهاد فى جوع وعرى ، كوارث ، أحزان دائمة ... يكفى أن أقول انه كان يموت كل يوم . وبالرغم من هذه الآلام المبرحة ، لكنه لم ينطق بكلمة تجديف ، بل أكثر من هذا فى وسط هذه كان فرحاً مفتخراً بها . إذ يقول ،أفرح فى آلامى ، كو ١ : ٢٤ . ومرة أخرى ، وليس ذلك فقط بل نفتخر أيضاً فى الضيقات ، رو ٥ : ٣ .

لقد كان فرحاً فى أثناء تعذيبه بهذه الضيقات الشديدة ، مفتخراً بها . إذن فما هو العذر الذى تقدمه لتذمرك بسبب عدم احتمالك لأمور أقل من هذه ؟!

كيف أقدم صدقة ؟

قد يقول قائل : لقد أصابنى أذى بطريق آخر ، وهو أننى وإن كنت لا أجدف بسبب سلب أموالى لكنى صرت عاجزاً عن تقديم الصدقة .

هذا اعتراض هين وادعاء بسيط . لأنك إن كنت تحزن بسبب هذا ، فاعلم أن الفقر لا يقف حائلاً أمام العطاء . لأنه مهما بلغ فقرك لن يصل إلى فقر الامرأة التى لم تكن تملك إلا ملء كف من الدقيق (١ مل ١٧ : ١٢) أو تلك التى لم يكن معها سوى فلسين (لو ١١ : ٢) . هاتين الامرأتين قدمتا كل ما لديهما . وقد كانتا موضع اعجاب فائق . ففقر عظيم كهذا لا يقف عائقًا أمام العطف ، إذ صدقة من فلسين كانت وفيرة ، تكشف عن كرم زائد يفوق كرم كل الأغنياء ، وبالنية السليمة والغيرة المتقدة فاقت هؤلاء الذين ألقوا نقوداً كثيرة .

إذن ، حتى فى هذا الأمر لا يصيبك أذى ، بل بالحرى تكون قد انتفعت ، نائلاً بتقديم صدقة صغيرة مكافأة أكثر مجداً ممن يدفعون ملامح ضخمة .

ملامح حياة محب المال :

ومع ذلك فإننى أطلف بما أقوله دومًا . ان الشخصيات الحساسة التى تبتهج بالزحف فى الأمور الزمنية ، وتفرح بالأشياء الحاضرة ، ليست مستعدة أن تتخلى حتى عن الورود الذابلة لأن هذا هو أمر الابتهاج بالزمنيات ، أو أن تترك مجرد ظلالها ... هناك أناس جديرون بالرثاء أكثر دناءة يتعلقون بالأمور الزمنية أكثر من الأمور المستقبلة .

هيا نرفع الوشاحات (الأوجه الصناعية) المفرحة جميلة المنظر ، التى تغطى عدم ضبط النفس القبيح المزيف .

لنفضح بشاعة هذه المرأة العاهرة . لأنه هكذا تشبه الحياة المكرسة للتنعم وحب الغنى والسلطة (الكبرياء) انها حياة خبيثة وقبيحة ومملوءة بغضاً شديداً ومكروهة ، مملوءة أثقالاً ومحملة بالمرارة . لأنه بالحقيقة هذه هى ملامح الحياة التى من يمسك فيها ليس له أى عذر .

وبالرغم من أن هذا هو هدف اشتياقهم وسعيهم ، إلا أن حياتهم مشحونة بالمضايقات الكثيرة والكرب ، ومملوءة بشرور لا تحصى ومخاطر وسفك دم وفجوات هاوية وأوعرة وقتلة ومخاوف ورعب وحسد وسوء نية ومكائد ، وقلق مستمر واهتمام

دائم ، ومع هذا كله لا يحصل على نفع ولا يأتى من هذه المخاطر الكثيرة بثمار، سوى العقوبة والانتقام والعذاب المستمر.

ولو أن هذه هى صفات حياة محبى المال ، لكنها تبدو لغالبية البشر أنها موضع طموح (طمع) وشغف زائد . وهذا يكشف لا عن بركة المادة ذاتها بل غباوة الذين أسروا فى حبها.

حقاً إن الأطفال الصغار يشتاقون إلى أدوات اللعب إذ هى تثيرهم ، ولا يقدرون أن يدركوا من ذواتهم الأمور التى تجعلهم رجالاً ناضجين كاملين . هؤلاء الأطفال لهم عذرهم بسبب عدم نضجهم . أما هؤلاء (المأسورين بمحبة المال) فليس لهم حق الدفاع لأنهم رغم نضوج سنهم إلا أنهم لازالوا أطفالاً فى طبعهم، وأكثر من الأطفال سذاجة فى مسلكهم فى الحياة .

والآن قل لى لماذا يكون المال هدفًا للطمع (الطموح)؟

لا بد لى أن أبدأ من هذه النقطة حيث أن كثيرين قد أصيبوا بهذا المرض الخطير ، فيبدو لهم أن المال أفضل من الصحة والحياة والسمعة الطيبة والصيت الحسن ، وأفضل من المدينة (أى يحب المال أكثر من المجتمع) وعائلته وأصدقائه وأقربائه وأى شىء آخر .

أضف إلى هذا أن لهب (محبة المال) قد صعد إلى السحب عينها ، والحرارة القاتلة تملكت على الأرض والبحر . ولا يوجد من يطفئ هذه النار ، بل يعمل الناس جميعهم على زيادة التهابها ، سواء أولئك الذين لحقت بهم نيرانها أو لم تلحق بعد بهم ، حتى يصير الكل أسيراً لها .

وها أنت ترى أن كل واحد : زوج وزوجة ، عبد وحر ، غنى وفقير ... الكل يحمل قدر استطاعته وقوداً يزيد اشعال هذه النيران (محبة المال) نهاراً وليلاً . وهم يحملون وقوداً لا من خشب أو عيدان ، لأنها ليست من هذا النوع ، بل وقوداً هو أرواح الأشرار الآثمة وأجسادهم . هذه هى المادة التى اعتادت هذه النار أن تشتعل بواسطتها .

لأن هؤلاء الذين لهم مقتنيات (غنى) لا يضعون حداً لهذه الشهوة المهولة فى أى مكان ، حتى وإن داروا حول العالم كله . كذلك الفقير يتضايق لكى يأخذ نصيباً وافراً من الغنى وهكذا يسيطر على أرواح الجميع نوع من الخبل عديم الشفاء ، وجنون لا يمكن مقاومته ، ومرض بلا علاج .

هذا الميل النفسى (محبة المال) يتغلب على كل عاطفة أخرى وينزعها من النفس ، فلا يعود يهمه صديقه أو قريبه ...

بل ولا يبالى بزوجته أو أولاده ... فهل يمكن أن يكون له أناس أعزاء أكثر من هؤلاء ؟!

إنه عندما نأسر هذه العشيقة (محبة المال) المتوحشة القاسية روح الإنسان ، عندئذ تتحطم بالنسبة لها كل القيم على الأرض وتصير تحت موطئ الأقدام .

مقارنة بين العاهرة ومحبة المال

كما أن العاهرة القاسية القلب ، الطاغية العنيفة ، البربرية المتوحشة ، التى تطلب ثمناً غالياً لشرها ، هذه الشريرة تستنزف هؤلاء الذين يسقطون فى أسرها ، وتفسدهم وتسبب لهم أخطاراً لا حصر لها . وبالرغم من كونها مرعبة وقاسية القلب ومتوحشة وعنيفة ، لها صورة الهمجى بل بالحرى صورة الوحوش الضارية بل وأعنف من الذئب والأسد ، إلا انها تبدو لمن أسرتهم فى حبالها كما لو كانت لطيفة ومحبوبة وأحلى من العسل .

وبالرغم من أنها تسبك ضدهم سيوفاً وأسلحة وتحفر لهم حفراً لاصطيادهم وتقودهم إلى أماكن هاوية وصخور شامخة وشباك لا نهاية لها ... ومع هذا فإنها تعمل على أن تجعل هذه الأمور موضع طمع للمأسورين فى شباكها ، والراغبين فى هذا الأسر .

مقارنة بين الحيوانات غير العاقلة ومحبى المال

وكما أن الخنزير يفرح ويلهو بانغماسه فى الوحل والطين ، والحشرات تزحف دائما مبتهجة نحو الروث ، هكذا المأسورين بمحبة المال هم أكثر بؤساً من هذه المخلوقات . لأن الرجاسة هنا أعظم ، والوحل أكثر قذارة ، لأن المنهمكون فى هذا الميل (محبة المال) يظنون أنهم ينالون فرحاً عظيماً . هذا الفرح لا ينبع من المادة ذاتها بل من فهمهم المتأثر بمثل هذا التأثر (الميل) السخيف . هذا التذوق أردأ من تذوق الحيوانات الاعجمية . فكما أنه فى الوحل والروث لا يكمن الفرح بل فى طبيعة المخلوقات غير العاقلة (الخنزير والحشرات) التى تنغمس فيها ، هكذا أيضاً بالنسبة للمخلوقات البشرية .

محبة المال وليس سلب أموالك هو الذى يؤذيك [1]

وكيف يمكننا معالجة أولئك الذين هذا هو حالهم (كالخنزير والحشرات) ؟ علاجهم يكون سهلاً إن أنصتوا بآذانهم لنا وفتحوا قلوبهم وقبلوا كلماتنا . لأنه بالنسبة للحيوانات غير العاقلة

(١) أطال القديس ذهبى الفم الحديث عن الغنى قاصداً محبة الغنى والمال ، وأفاض عما يسببه من أذى للنفس ، وكيف أن الفقر فى ذاته لا يضر . وقد اختصرت هذا الحديث ، مكتفياً ببعض أقواله .

(الخنزير والحشرات) يستحيل الاقلاع عن عاداتها غير المستحبة ، لأنها عديمة العقل . أما هؤلاء الذين هم أسمى فضيلة فى المخلوقات الأرضية ، الذين تشرفوا بالعقل والنطق ، أقصد البشر ، يلزمهم – إن أرادوا – أن يستعدوا للهروب من الوحل والنتانة والروث ونجاسته ، وهذا سهل عليهم ..

إنه لا يمكنك أن تعدد الأسباب (التى تدفعك لمحبة المال) سوى اللذة والكبرياء والخوف والقدرة على الانتقام .

فالثروة عادة لا تعمل على أن يصير الانسان حكمياً أو ضابطاً لذاته أو أكثر وداعة أو تعقلاً أو شفوقاً أو محباً أو متسامياً على الغضب والنهم واللذة . انها لا تدرب الإنسان ليكون عفيفاً أو تعلمه الاتضاع ، ولا أن يبدأ أو يزرع أى نصيب من الفضيلة فى الروح .

وأظن أنه لا يقدر أن يقول عن أى شىء من هذه الأمور انها تستحق أن يطلبها الانسان ويشتهيها بكد . لأن محبة الغنى ليس فقط تجعل الإنسان يجهل كيفية غرس أو زرع أى فضيلة ، بل وان وجدت فيه مخزناً من الأعمال الصالحة ، فانها تعمل على اعطابها وتوقف نموها وتفسدها . بل وتقتلع بعض الفضائل

ليحل محلها ما يضادها من تهور غير محدود وحنق زائد وغضب شرير وكبرياء وحب ظهور وغباء .

دعنى لا أتكلم عن هذا ، لأن أولئك الذين أمسكوا بهذا المرض (محبة المال) لا يقدرون أن يحتملوا السماع عن الفضيلة والرذيلة . إذ قد تشبعوا باللذة واستعبدوا لها . فلنترك الزمن بنفسه يعلن هذه الأمور . والآن نتكلم عن الأمور الأخرى الباقية وهى ، هل الثروة فيها سعادة وكرامة ؟ ، لأنه فى نظرى أن الأمر على نقيض هذا .

تكلم ذهبى الفم بإطالة مقارناً بين طعام الغنى وطعام الفقير ، مظهراً الأمراض الفسيولوچية التى يخضع لها كثير من الأغنياء بسبب الشره فى الأكل ، كما تحدث عن الاستعباد لشهوة الأكل والشرب . وأخيراً قارن بين السعادة التى يشعر بها الغنى والفقير أثناء الأكل ، مؤكداً أن اللذة لا تتوقف على نوع الطعام بل على اشتياق الإنسان واحتياجه للطعام . وقد علق على قول الرب بلسان النبى ، من الصخرة كنت أشبعك عسلاً ، مز ٨١ : ١٦ . قائلاً بأن الله لم يخرج لهم عسلاً بل ماء ، لكن فى إرهاقهم وتعبهم وجهادهم فى السير صار الماء عسلاً فى أفواههم .

هذا بالنسبة لمائدة الفقير ، أما الغنى فإن مائدته لا يشعر الآكلون منها بالسعادة ، حتى ما هو حلو فيها يصير بالنسبة لهم مراً) راجع أم ٢٧ : ٧ .

هل الثروة تجلب الكرامة ؟

قد يقول قائل : لكن الثروة تطفى على صاحبها كرامة ، وتمكنه من الانتقام من أعدائه بسهولة .

أسألك : هل هذا هو السبب الذى لأجله تبدو لك الثروة مثار شوق ويستحق نضال من أجلها . إذ تعمل على إثارة ميول خطيرة فى طبيعتنا ، فتقود الغضب إلى حيز التنفيذ ، وتزيد فقاعات الطمع الفارغة ، وتحث البشر وتثيرهم نحو الزهو ؟! فلماذا لا يكون هذا هو السبب عينه الذى يدفعنا إلى أن نعطى للثروة ظهرنا بحزم ، لأنها تدخل فى قلوبنا حيوانات مفترسة قاسية وخطيرة ، فتنزعنا من الكرامة الحقيقية التى يلزم أن تكون لنا وتقدم ما هو مضاد للكرامة الحقيقية لمن ينخدعون بواسطتها ، ويكون عملها عندئذ أن تكسى ما هو مضاد للكرامة ألواناً حتى يحسبونها كرامة مع انها ليست كذلك فى حقيقتها ...

فكما أن العاهرات جمالهن يكمن فى طلاء الألوان والأصباغ ، ومع أن وجوههن قبيحة دنسة مفتقرة إلى الجمال

الحقيقى لكنها تبدو لمن يخدعن إياهم أنها حسنة وجميلة ... هكذا أيضاً (حب المال) يعمل على اظهار التملق أنه كرامة .

أتوسل إليك ألا تعطى اعتباراً للمديح الذى يقدم بسبب الخوف منك أو لتملقك ، فإن هذا فى حقيقته ليس إلا ألواناً ناصعة وأصباغ . فإن كشفت الضمير الداخلى لكل فرد من الذى يتملقونك بهذه الطريقة ، تجد فيه اتهامات لا حد لها موجهة ضدك ، كما تجد شتائم وبغض أكثر مما يصبه لك الأعداء والمناضلين لك . فإذا حدث أن تغيرت الظروف بحيث تحرك وانفضح القناع (أو الوجه المستعار) الذى أوجده الخوف ... عندئذ سترى بوضوح كيف يزدرى بك إلى أبعد حد أولئك الذين كانوا قبلاً يترددون إليك ، وتعرف انك كنت متخيلاً أنك متمتع بالكرامة من هؤلاء الذين يكرهونك ، هؤلاء الذين تغلى فى داخل قلوبهم شتائم لا حد لها ضدك ، ويشتاقون أن يروك وقد حلت بك مصائب فادحة .

إذن لا يوجد مثل الفضيلة لكى تنال الكرامة – لا عن قوة أو تصنع ولا تكمن تحت قناع الخداع – بل الكرامة التى هى بحق وأصيلة ، وقادرة أن تثبت مع تجارب الأزمنة القاسية .

هل المال يساعدك على الانتقام ؟

ولكن هل ترغب فى الانتقام من مضايقيك ؟

هذا هو السبب – كما كنت أقول حتى الآن – الذى لأجله يجب أن نتجنب المال (حب المال) لأن هذا يجعلك تستل سيفك ضد نفسك ، ويردك مطالباً بحمل ثقيل يوم الحساب المقبل ، ويجعل عقابك غير محتمل .

لأن الانتقام هو شر عظيم هكذا حتى أنه يعمل على نزع المراحم الإلهية ، ويفسد المغفرة التى وهبت لك عن الخطايا غير المحصية . لأن الذى نال عفواً عن دين من عشرة آلاف وزنة ، هذا بعدما نال العفو العظيم بمجرد أن طالب العبد رفيقه بالدين الذى له عنده وهو مئة فلس ، هذه المطالبة كانت بالنسبة له تعدى على نفسه ، إذ بقسوته على زميله أخضع نفسه للإدانة (إذ عاد السيد يطلب منه الدين الذى أعفاه منه) فلهذا السبب ، وليس بسبب آخر سحبه المعذبون وصار هناك مرهوناً ومطالباً بتسديد العشرة آلاف وزنة ، ولم يسمح له لا بالاعتذار ولا بالدفاع ، إنما نال عقوبة عظيمة ، مطالباً بالدين الذى كان الحنان الإلهى قد أعفاه منه سابقاً (مت ١٨ : ٢٣ – ٣٥) .

أسألك ، هل لهذا السبب تطلب الثروة مناضلاً بشوق عظيم هكذا ، إذ تقودك إلى خطية من هذا النوع ؟! بلى بالحقيقة السبب الذى لأجله يلزمك أن تتحرز من محبة المال كعدو وخصم ينتج جرائماً لا حصر لها .

هل أضر الفقر بلعازر

قد يقول قائل : أن الفقر يجعل الناس متضجرين ، وغالباً ما يدفعهم إلى النطق بكلمات تجديف ، وينزل بهم إلى الأعمال الدنيئة .

ليس الفقر هو الذى يفعل بالإنسان هكذا ، بل دناءة النفس ، لأن لعازر كان فقيراً ، نعم كان فقيراً جداً ، ويعانى بجانب فقره من ضعف جسدى أقسى بكثير من الفقر فى أى صورة من صوره ، الأمر الذى جعل فقره قاسياً جداً . وبجانب هذا الضعف أيضاً ، كان محروماً تماماً من الذين يعولونه ، مع صعوبة ايجاد أى مئونة لسد اعوازه ، الأمر الذى ضاعف من مرارة فقره وضعفه ... فعدم وجود من يعوله ، يجعل ألمه أشد ، واللهب أقسى ، الكارثة أمر والمجرب أكثر وحشية ، والأمواج عنيفة والأتون أكثر اتقاداً ...

وهناك أيضاً تجربة رابعة بجانب الجوانب الثلاثة السابقة ، وهى عدم اكتراث الغنى به رغم ترفه .

وإن أردت ، تجد أيضاً أمراً خامساً يزيد التهاب النار ... ان الغنى ليس فقط يعيش فى حياة ترف ، بل ويرى الفقير مرتين

وثلاثة بل ومرات عديدة يراه كل يوم ملقى عند بابه ، إذ هو مشهد خطير لكارثة يرثى لها ، مجرد النظر إليه يكفى أن يلين القلب الحجرى ، ومع هذا فإن المنظر لم يدفع الرجل القاسى إلى مساعدة هذا الفقير إلى هذه الدرجة ؛ إنما كان يقيم مائدته المترفة ، عليها الكؤوس المزينة بالورود ، والنبيذ النقى يصب بغزارة ، لديه جيوش من الطباخين والمتطفلين والمتملقين يعملون منذ الفجر المبكر ، وفرق من المغنين وحاملى الكؤوس والمهرجين ، ويقضى كل وقته منغمساً فى الملذات والسكر والأكل بشراهة ، متنعماً بالملبس والأكل وبأمور أخرى كثيرة .

فمع أنه كان يرى هذا الفقير منكوباً بالجوع الزائد والضعف الجسدى المر وبالقروح الكثيرة ، والحرمان والمرض الناتج عن هذا الحال ، إلا أنه لم يفكر فيه . فالمتطفلين والمتملقين كانوا يتنعمون بأكثر من احتياجهم ، أما الفقير – الذى كان فقيراً جداً ومنكوباً بمآسى كثيرة ، لم يعط له حتى الفتات الساقط من مائدته رغم اشتهائه له بشوق عظيم .

ورغم هذا كله ، فإن شيئاً من هذه الأمور لم تؤذ لعازر إذ لم ينطق بكلمة قاسية ، ولا تكلم بحديث دنىء ، إنما كقطعة الذهب التى تشع ببريق أعظم كلما تنقت بنار متزايدة .

بالرغم من هذه الضيقات التى أحاطت به ، إلا أنه تسامى عليها ، وعلى ما تنتجه هذه الأمور من هياج .

فإن كنا نتكلم عن الفقراء عامة وما يثور فى نفوس من حسد وما يتعذبون به من تفكير الحقد الردئ ، عند رؤيتهم للأغنياء ناظرين إلى أنه لا تستحق الحياة المتسمة بالفقر أن توجد . هذا يفكر فيه الفقراء الذين يجدون القوت الضرورى ولهم من يعطيهم اعوازهم ، فكم يكون هذا الفقير لعازر ، ألم يكن بحق حكيم جداً ، طيب القلب ، إذ يرى نفسه أفقر من كل الفقراء ، بل وبه ضعف ، وليس له من يقيه أو يعطف عليه ، ملقى فى وسط المدينة وكأنه فى وسط صحراء بعيدة ، يتلوى من مرارة الجوع ، ويرى كل الخيرات تتدفق على الغنى كما من نافورة ، ليس له أى تعزية بشرية ، ملقى كغذاء دائم تلحسه ألسنة الكلاب، ومن ضعفه وتحطيم جسده لا يقدر حتى على طردها !!

أما تدرك إذن أن الذى لا يؤذى نفسه لا يقدر أن يؤذيه شيء ؟ .. لأنه أى ضرر أصاب هذا من ضعف جسده أو عدم وجود من يحميه أو التفاف الكلاب حوله أو من شر مجاورته للغنى ورؤيته عظم الترف والتنعم والكبرياء الذى للأخير ؟ هل هذه الأمور أضعفته ليضاد الفضيلة ؟! هل أوهنت هدفه ؟!

انه لم يؤذيه شيء بالكلية ، بل كثرة أتعابه مع قسوة الغنى ، زودته قوة ، وصارت بالنسبة له دعامة لنوال أكاليل النصرة غير المتناهية ، كوسائل تزداد بها مكافأته ، وباعث لنوال جرائه .. إذ كان يحتمل تجربته بشجاعة وثبات عظيم ..

أنت بلا عذر !!

أولاً : لا تحتج بعدم دعوتك

تقديم (١)

بعدما عالج ذهبى الفم عدم امكان اصابتنا بضرر ، لا من إنسان ولا شيطان ولا اغراء للخطية ولا تهديد بالحرمان من أمور هذه الحياة ... طالما القلب ملتصق بالله وساهر ومتيقظ ، يجاهد متمسكاً بالنعمة الالهية والامكانية الالهية المعطاة لنا ، خشى ذهبى الفم لئلا يعتذر أحد قائلا : اننى أسقط فى الخطية ، لأننى لست مدعواً لملكوت السموات .

والحقيقة أن الله ، يريد أن الكل يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون ، ، أما سقوطنا فليس لأن الله قد رفضنا ، ولا لأنه سمح لنا بالتجارب ، إنما لأن أساس قلبنا مبنى على الرمل لا الصخر ... مبنى على محبة العالم الواهية ، لا محبة يسوع الحقيقية .

فيهوذا دعى ومات المسيح لأجله لو آمن به ، لكنه هو رفض رغم كل الامكانيات التى أعطيت له أكثر من جميعنا . والشعب غليظ القلب رفض الله وعبد العجل الذهبى رغم

(١) هذا التقديم من وضع المترجم .

المعجزات والبركات المعطاة له ، بينما تاب سريعاً شعب نينوى الأممى ...

يهوذا بلا عذر !!

إخبرنى ماذا كان حال الطوباوى بولس ؟! لأنه لا يوجد ما يمنعنى من الاشارة إليه مرة أخرى . ألم يعانى من عواصف التجارب بلا حصر ؟! فى أى شىء أضرته هذه التجارب ؟! ألم يتوج بالنصرة بالأكثر ، إذ احتمل الجوع وعانى من البرد والعرى ، وتعذب بجلدات ورجم وغرق فى البحر ؟!

لكن قد يقول قائل : انه بولس ، لقد دعاه المسيح !!

وأيضاً يهوذا كان أحد الاثنى عشر ، ودعاه المسيح أيضاً ، ولكن لم يكن مجرد حسبانه ضمن الإثنى عشر ، ولا دعوته أفادته لأن فكره لم يكن ثابتاً فى الفضيلة .

فبولس بالرغم من مصارعته ضد الجوع وحرمانه من قوته الضرورى ومع تحمله لأتعاب كثيرة كهذه يومياً سلك فى الطريق المؤدى إلى السماء بغيرة عظيمة ، بينما يهوذا رغم دعوته من الرب قبل بولس وتمتعه بنفس المميزات ، وتعلم فى اسمى شكل للحياة المسيحية ، وكان له نصيب فى المائدة

المقدسة ، التى هى أعظم الموائد المرهبة ، وأعطيت له مثل هذه الموهبة أن يقيم الميت ويطهر البرص ويخرج الشياطين ، كما سمع الكثير عن موضوع الفقر ، وقضى وقتًا طويلاً فى اصطحابه للسيد المسيح نفسه، بل وكان موضع ثقة ليكون معه صندوق الفقراء ، حتى تتلطف شهوته ، إذ كان لصًا ، ومع هذا كله لم يتحسن ، رغم ما وهب له من لطف عظيم كهذا . فإذ عرف المسيح أنه طماع وأنه سيهلك بسبب محبته للمال ، لم يعاقبه للحال ، بل وأعطاه صندوق الفقراء ليلطف من شهوته ، حتى تكون له بعض الوسائل لإبطال طمعه ، لعله ينقذ من السقوط فى تلك الهوة المريعة للخطية ، ويوقف الشر العظيم .

هكذا ، على أى الأحوال ، لا يمكن لأحد أن يؤذى إنساناً لم يختر لنفسه أن يؤذى نفسه . ولكن إن كان الإنسان غير راغب فى أن يضبط نفسه ويعين نفسه من الداخل ... لا يقدر أحد أن يعينه .

فتلك القصة العجيبة الواردة فى الكتاب المقدس ، التى كما لو كانت فى صورة شاهقة ضخمة متسعة ، ترسم حياة رجال العهد القديم، ابتداء من رواية آدم حتى مجىء المسيح، هذه

القصة تعرض لك الذين هلكوا ، والتى توجوا بالنصرة فى المعركة . وهى تعلمك أنه لا يوجد أحد يقدر أن يؤذى آخراً ، لو لم يضر هذا الآخر نفسه ، حتى ولو شن العالم كله حربًا قاسية ضده . فلا ضغط الظروف ولا اختلاف الأزمنة ولا شتائم البشر الذين لهم سطوة ، ولا المكائد ... ولا تجمهر الكوارث ولا تجمع الأمراض الكثيرة ، التى يخضع لها البشر ، هذه كلها لا تقدر – ولو إلى درجة خفيفة – أن تقلق الإنسان الشجاع ضابط نفسه المتيقظ . وعلى العكس الإنسان المتراخى المستلقى على ظهره ، الذى هو خائن لنفسه ، لا يقدر أن يصير فى حالة أحسن مما هو عليها ، ولو قدمت له خدمات لا حصر لها .

أمثـــلة

هذا على الأقل وضح لنا من مثل الرجلين ، اللذين أحدهما بنى بيتًا على الصخر ، والآخر على الرمل (مت ٧ : ٢٤ .. الخ) ليس لنا أن نفكر فى الرمل والصخر ، أو فى البناء أو الأمطار والعواصف... بل أن نتنبه إلى الفضيلة والرذيلة كمعانى لهذه الأمور ، مدركين أنه لا يضر أحد انساناً لا يضر نفسه .

فلا المطر رغم سقوطه بغزارة ، ولا العواصف التى تصد المبانى رغم عنفها ، ولا الرياح الشديدة التى تهاجم بعنف ...

استطاعت أن تهز البيت فى أى درجة ، بل بقى ثابتًا غير متزعزع وهكذا نفهم أنه لا تقدر تجربة ما أن تزعزع الإنسان الذى لا يخون نفسه .

أما منزل ذلك الرجل الذى سقط سريعًا ، فإن سقوطه لم يكن بسبب قوة التجارب (لأن البيت الثانى عانى بنفس القدر) لكن السبب هو غباوة صاحبه ... لأنه بناه على الرمل أى نتيجة التراخى والشر . إنه قبل السقوط كان ضعيفًا ومستعداً للسقوط . لأن المبانى التى على الرمل ولو لم يضغط عليها شىء فإنها ستتدمر من نفسها وتتبدد فى كل اتجاه ...

فكما أن أنسجة العنكبوت تتمزق دون أى مقاومة (ملموسة) لكن الماس لا ينكسر حتى إن طرق ، هكذا أيضًا الذين لا يضرون أنفسهم يصيرون إلى حياة أقوى متى أصابتهم ضربات لا عدد لها . أما الذين يخونون أنفسهم فإنهم يسقطون وينهارون ويهلكون ولو لم يثرهم أحد . لأنه هكذا هلك يهوذا مع انه لم يتعرض لتجربة من هذا النوع (كبولس) ، بل بالعكس قد أعطيت له امكانيات عظيمة .

ثانياً : لا تحتج بضعف امكانياتك

تقديم [1]

كثيرون سر سقوطهم عدم معرفتهم للإمكانية القوية التى أعطاها الرب لنا لكى نتوب ونعيش فى حياة القداسة . فلا يصيبنا ضرر لا من الشهوات الجسدية أو العالم بمغرياته وتهديداته أو الشيطان بمكره ... بقدر ما يعمل العدو باستمرار أن ينسينا حقيقة أنفسنا ، خاصة نحن أبناء العهد الجديد حيث أعطى لنا الروح القدس ساكنًا فينا ويسوع مصلوباً حباً فينا والكنيسة كأم تقدم لأولادها عمل الله فى الأسرار ....

إن عمل الشيطان فى تجربته ضد الرب يسوع كانت فى محاولته تشكيكه فى بنوته للآب ، ان كنت ابن الله ....، وهذه هى المحاولة المستمرة التى يصنعها معنا وكثيراً ما ينجح فيها ... لذلك فإن صلوات الرسول من أجل شعبه هى لكى تكون مستنيرة عيون أذهانهم ليعلموا ، ما هى عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب شدة قوته ، أف ١ : ١٩ .

---

(١) هذا التقديم من وضع المترجم .

فالسقوط هو من تراخينا وكسلنا وتهاوننا فى استخدام الأسلحة الروحية القوية التى بين أيدينا بل فى داخلنا ، وليس فى ضعف امكانياتنا . وشعب نينوى الأممى الذى لم يتذوق شيئاً مما سمعناه ورأيناه وتذوقناه فسيكون موبخاً لنا فى يوم الدينونة.

هل انتفع اليهود قساة القلب بعطايا الله !؟

قارن ذهبى الفم بين الشعب اليهودى العنيد رغم ما تقدم له من امكانيات ، وبين أهل نينوى سريعى التوبة رغم أنه لم تعط لهم عطايا كالأولين) .

العطايا الالهية لم تلين عناد قلبهم

أتريد أن أوضح لك هذا البرهان بأمثلة من جميع الأمم أى عطايا قدمت لليهود (فى خروجهم من مصر) ألم تقم المخلوقات المنظورة كلها بخدمتهم ، وأعطيت لهم وسائل جديدة وفريدة للحياة ؟ فإنهم فى البرية) لم يكونوا يذهبون إلى سوق إنما يأخذون ما يشترى بمال مجاناً ، ولم يفلحوا أرضاً ولا استخدموا محراثاً ولا مهدوا الأرض للزراعة ، ولا ألقوا بذاراً ولم يحتاجوا إلى أمطار ورياح أو فصول للسنة للزراعة ، أو أشعة شمس أو شكل معين للقمر أو طقس معيّن ولا شيء من هذا القبيل. انهم لم يعدوا الأرض لدرس الحنطة ولا درسوا حنطة ولا

استخدموا مذراة لفصل الحنطة عن القش ، ولا طاحوناً ولا فرناً ولا أحضروا خشباً أو ناراً فى بيت . ولم يحتاجوا إلى أدوات للعجن... ولا أى نوع آخَر مِّن الأدوات الخاصة بالنسج والبناء وصنع الأحذية ، بل كانت كلمة الله هى كل شيء بالنسبة لهم .

لقد كانت لهم مائدة لم تعدها يد بشرية ، أعدت بلا جهاد أو تعب . لأنه هكذا كانت طبيعة المن ، أنه جديداً وطازجاً ، ولا يحملهم أى مشقة أو جهاد .

أما ثيابهم وأحذيتهم وأبدانهم فقد فقدت ضعفها الطبيعى . فثيابهم وأحذيتهم لم تبل بعامل الزمن وأرجلهم لم تتورم رغم كثرة السير . ولم يذكر قط أن بينهم كان أطباء أو دواء أو أى شيء من هذا القبيل . وهكذا قد انتزع كل ضعف من بينهم . فقد قيل ، فاخرجهم بفضة وذهب ولم يكن فى أسباطهم عاثر (هزيل) ،مز ١٠٥ : ٣٧ ... أشعة الشمس فى حرارتها لم تضربهم لأن السحابة كانت تظللهم وتحيط بهم كمأوى متحرك يحمى أجساد الشعب كله . ولم يحتاجوا إلى مشعل يبدد ظلام الليل، بل كان لهم عمود النار كمصدر إضاءة لا ينطق به يقوم بعملين : الاضاءة مع توجيههم فى طريق رحلتهم ... قائداً هؤلاء الضيوف الذين بلا عدد فى وسط البرية بدقة أفضل من

أى مرشد بشرى . ولم يرحلوا فقط على البر بل وفى البحر كما لو كان أرضاً يابسة ... فقد قاموا بتجربة جريئة تخالف قوانين الطبيعة إذ وطئوا البحر الثائر ، سائرين فيه كما على صخر يابس صلب . فإذ وضعوا أقدامهم فيه صارت مادته كالأرض اليابسة ... وإذ وصل إليه الأعداء عاد إلى ما كانت عليه طبيعته ، فصار للأولين مركبة وللأعداء قبراً ... فقام البحر الذى لا يفهم بدور محكم كأعقل وأذكى انسان ، قام بدور حارس مرة وبدور منتقم مرة أخرى ، معلناً هذا العمل المتناقض فى يوم واحد .

وماذا أقول عن الصخرة التى أخرجت ينابيع ماء ؟ وسحاب الطيور الذى غطى الأرض بكثرته ؟ وماذا عن العجائب التى حدثت فى مصر ؟ ...

ان هذه العجائب جميعها لم تكن لمجرد اشباع احتياجاتهم ، إنما لكى يحفظ الشعب التعاليم المسلمة لموسى عن معرفة الله بدقة زائدة .

ومع ذلك فإنه بعد عناية ملموسة عظيمة هكذا ، وبركات لا ينطق بها ، ومعجزات قوية ، واهتمام زائد ، وتعليم مستمر ، وتحذيرات تارة بالكلام وأخرى بالأعمال ، ونصرات مجيدة ونجاح غير طبيعى وشبع زائد لاحتياجاتهم من الطعام وفيض

مياه غزيرة ، ونظرهم مجد غيرمنطوق به فى أعين الطبيعة البشرية (موسى) . **مع ذلك فقد تذمروا وبلا أى احساس عبدوا العجل وكرموا رأس الثور ، رغم تذكرهم بركات الله ... بل وكانوا لازالوا يتمتعون بها .**

استعداد شعب نينوى للتوبة ؛

وأما أهل نينوى فبالرغم من كونهم شعب بربرى وغريب، ليست له أى شركة فى البركات ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لا بكلمات ولا بمعجزات ولا بأعمال ، هؤلاء عندما رأوا انساناً منقذاً من الغرق ، لم يلتق بهم من قبل ولا سبق لهم أن عرفوه ، يدخل مدينتهم قائلاً ، بعد (أربعين) يوماً تنقلب نينوى ، يونان ٣ : ٤ رجعوا وتابوا ... ونزعوا شرورهم القديمة وتقدموا فى حياة الفضيلة بالتوبة ، حتى جعلوا العبارة (الخاصة بالغضب الإلهى) ينتهى مفعولها ... ، فلما رأى الله أعمالهم انهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذى تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه ، يونان ٣ : ١٠ .

كيف تغير هؤلاء رغم شرهم العظيم وقسوتهم غير المنطوق بها وقروح أخلاقهم المستعصية العلاج ، إذ مكتوب ، قد صعد شرهم أمامى ، يونان ١ : ٢ مشيراً إلى العلو المكانى كتعبير عن

مقدار عظمة شرهم ، إذ قد تكدس إلى علو هذا قدره ، حتى بلغ إلى السماء ...؟!

أنظر إذن كيف يمكن للإنسان الساهر الضابط لنفسه المتيقظ ليس فقط لا تمتد إليه أيدى بأذى بل ويستطيع أن يرفع الغضب السماوى !! ...

فشعب نينوى رغم أنه لم يكن لهم أى نصيب من المعجزات التى للشعب اليهودى (القاسى القلب) ، لكن بقدر ما كان لديهم من استعداد داخلى حسن ، فإنه إذ أعطيت لهم فرصة بسيطة استفادوا منها ليصيروا إلى حالة أحسن ، رغم جهلهم بالوحى الإلهى وابتعادهم عن فلسطين !!

موقف الثلاثة فتية

مرة أخرى أسأل : هل فسدت فضيلة ، الثلاثة فتية ، بسبب المتاعب التى حلت بهم ؟ فرغم صغرهم ، بل صغرهم جداً من جهة السن ... ألم يخضعوا للأسر المؤلم الخطير ؟ ألم يقصوا بعيداً جداً عن بلدهم ؟ ... ألم يحرموا من بلدهم وبيتهم وهيكلهم ومذبحهم وذبائحهم وتقدماتهم حتى من أدوات ترتيل بالمزامير ؟! ... إذ كنتيجة حتمية قد حرموا من كل أشكال

العبادة . ألم يسلموا فى أيدى همجية هم ذئاب أكثر منهم بشر ؟ وحاقت بهم كوارث أعظم من الكل ... محتملين الأسر الخطير بلا معلم ولا نبى ولا مرشد ... علاوة على هذا حملوا إلى القصر الملكى وصار كمن هم بين الشقوق والصخور مبحرين فى بحر مملوء بالشعاب والصخور مجبرين على الابحار فى بحر من الغضب بلامرشد أو عامل للإشارات أو طاقم أو بحارة ، محبوسين فى القصر الملكى كمن فى سجن ؟! ولكن بقدر ما عرفوا الحكمة الإلهية وسموا بالأمور الإلهية واحتقروا كل كبرياء بشرى وصارت لهم أجنحة لأرواحهم يحلقون بها عالياً ، معتبرين أن غربتهم هناك كأنها تشديد لمتاعبهم .

فانهم لو كانوا خارج البلاط يقطنون فى مسكن خاص ، لكانوا أكثر استقلالاً ، لكنهم بهذا ألقوا كما فى سجن ... خاضعين لأى أمر أو تدبير قاسى مباشرة . فإذا طلب الملك منهم أن يشاركوه فى مائدته وترفه وأطاييبه الدنسة ، الأطعمة المحرمة عليهم ، كان هذا بالنسبة لهم أرعب من الموت . وقد كانوا كحملان وسط ذئاب كثيرة ، مجبرين إما أن يعدموا أو يأكلوا الطعام المحرم ...

انهم لم يبالوا بالسلطان القاسى المطلق ، مع انه كان لديهم ما يبررون به طاعتهم له ، لكنهم قدموا نصيحة ورأيًا مناسبًا حتى يتجنبوا الخطية رغم تجريدهم من كل شيء . إذ لم يكن ممكنًا أن يغروا (رئيس الخصيان) بمال فكم بالأكثر وهم أسرى لا يملكون مالاً ؟! ولا بصداقات أو صلات اجتماعية أن تتشفع لهم أمامه ، فكم وهم غرباء ؟! وما كان يمكن أن يتحسن موقفهم حتى وان كان لهم سلطان ، فكم وهم عبيد ؟! وما كانوا يسيطرون عليه بكثرة العدد ، فكم يكون موقفهم وهم ليسوا إلا ثلاثة ؟!

ومع ذلك اقتربوا إلى الخصى الموكل إليه بهذا العمل ، واقنعوه بحججهم ، إذ رأوه خائفًا ومرتعبًا ... إذ يقول ، انى أخاف سيدى الملك الذى عين طعامكم وشرابكم . فلماذا يرى وجوهكم أهزل من الفتيان الذين من جيلكم فتدينون رأسى ، دا ١ : ١٠ أنقذوه من هذا الرعب ، وأقنعوه أن يعطيهم مهلة ... وإذ عملوا بكل قوتهم ساهم الله أيضًا بقوته ... وإذ أعلنوا نبلهم وشجاعتهم ربحوا لأنفسهم العون الإلهى وهكذا تحققت أهدافهم .

هل تدرك أن أى إنسان لا يضر نفسه لا يقدر أحد أن

يضره ؟ أنظر على الأقل إلى حداثة سن هؤلاء وأسرهم ... الخ . فإن هذا كله لم يضرهم بل على العكس صار لهم بسببه سمعة أفضل مما كانت لهم قبلٌ حزمانهم .

وهكذا بعدما نفذوا عملهم فانهم خضعوا لأعداء آخرين ، ومرة أخرى كانوا هم نفس الرجال ، وقد خضعوا لتجربة أقسى من الأولى ، إذ أشعل لهم أتون ، وتصدى لهم جيش من المتبربرين يصحب الملك ، وكل طاقة الفرس قد وجهت لتمكر بهم وتضايقهم ... ومع ذلك بقدر ما هم لم يخونوا أنفسهم بل قدموا كل ما فى طاقتهم ، لم تصبهم أى خسارة ، بل ربحوا لأنفسهم أكاليل نصرة مجيدة لم ينالوها من قبل . فنبوخذ نصر ربطهم وألقى بهم فى الأتون ، لكنه لم يحرقهم ، بل بالعكس أفادهم وردهم ممجدين . وبالرغم من حرمانهم من الهيكل والمذبح . مع القائهم فى الأتون وقد التف حولهم كثيرون جبابرة والملك نفسه الذى سمح بهذا يتطلع اليهم ؛ فانهم شيدوا نصبًا تذكاريًا مجيدًا ، ونالوا نصرة ملموسة ، مرتلين بتسبحة عجيبة وغريبة ، التى من ذلك اليوم إلى الآن ينشد بها فى العالم ، وستبقى إلى مدى الأجيال ...

فإن كان السبى والعبودية ... لم تقدر أن تفسد الفضيلة الداخلية للثلاثة فتية المأسورين ، المستعبدين ، الغرباء ... بل صار مقاومة الأعداء بالنسبة لهم بالحرى فرصة لنوال ثقة (إيمان) أعظم ، فأى شىء يمكن أن يضر الإنسان الضابط لنفسه ؟ لا شىء يضره ، ولو قام العالم كله فى جيوش ضده . لكن قد يقول قائل : أنه فى حالة هؤلاء الفتية كان الله واقفاً معهم، وحماهم من النيران . بالتأكيد هذا حدث، فإن قمت أنت بواجبك قدر قوتك ، فإن العون الإلهى حتماً سيرافقك .

ومع ذلك فإن السبب الذى لأجله أعجب من هؤلاء الفتية ، وأدعوهم طوباويين وأشتهى أن نقتدى بهم ، ليس لأنهم تغلبوا على اللهب ، وأطفأوا حرارتها ، بل لأنهم ربطوا وطرحوا فى الأتون ... لأجل الإيمان المستقيم ، فإن هذا هو الذى شيد كمال نصرتهم . وإكليل النصر قد وضع على رؤوسهم فى اللحظة التى ألقوا فى الآتون ، قبل أن تتم تلك الأحداث ... بل وبدأت تضفر لهم هذه الأكاليل منذ اللحظة التى نطقوا فيها بتلك الكلمات المملوءة شجاعة وحرية فى الحديث مع الملك إذ كانوا فى حضرته ، لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر . هوذا يوجد إلهنا الذى نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة وأن ينقذنا

من يدك أيها الملك ، وإلا فليكن معلوماً لك أيها الملك أننا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذى نصبته ، دا ٣ : ١٦ – ١٨ . بعدما نطقوا بهذه الكلمات أعلن نصرتهم . إذ أمسكوا بإكليل المكافأة وأسرعوا إلى اكليل الاستشهاد المجيد ملحقين شهادتهم بكلامهم بشهادتهم بأعمالهم ...

ماذا إذن تقول عن هذه الأمور ؟ هل أنت نفيت واقصيت بعيداً عن بلدك ؟ أنظر فإن هؤلاء أيضاً حدث لهم هذا .

هل أنت أخذت أسيراً (فى حرب) وصرت عبداً لسادة متبربرين ؟ ... أو هل ربطت وأحرقت وقدمت للموت ؟ لأنك لا تستطيع أن تذكر لى أمور مؤلمة أكثر من هذه ؟ ومع ذلك فإن هؤلاء الرجال اجتازوا هذا كله ، وصار أكثر مجداً بسبب كل ألم من هذه الآلام ، نعم وأعظم شهرة ،وازدادت مخازن كنوزهم فى السماء ... (١) .

(١) لم أترجم بعض الفقرات لعدم التكرار .

خـــاتمة

والآن فإننى أختتم مقالى بتكرار ما قلته فى المقدمة أنه ان أصاب أحد ضرراً فإنه يعانى هذا من صنع يديه ، وليس من عمل آخرين ، وحتى ولو وجدت جموع حاشدة تسىء إليه وتسبه ، حتى أنه إذا لم يعانى مما تصنعه يداه ، فإنه وإن قامت جميع المخلوقات الساكنة فى كل الأرض والبحر ، إن اجتمعت جميعاً لمهاجمته فإنها لا تقدر أن تؤذى إنساناً ساهراً بحكيماً فى الرب .

أتوسل إليك إذن أن تكون حكيماً ومتيقظاً فى كل الأوقات محتملاً كل الآلام بشجاعة ، حتى تنال البركات الأبدية النقية فى المسيح يسوع ربنا ، الذى له المجد والقوة الآن وإلى أبد الآبدين . آمين .

❖ ❖ ❖

أودع بدار الكتب تحت رقم ٤١٥٥ لسنة ١٩٧٠